٨٩

(إسماعيل بن أبي بَكْر بن عبد اللَّه بن إبراهيم)[١]

ابن عليّ بن عَطِيَّة بن عليّ الشرف الشرجيّ اليمانيّ الشافعيّ المعروف بالمقرئ الزبيدي: (ولد) سنة ٧٥٤ أربع وخمسين وسبعمائة، وتفقَّه بالجمال الراعي، وقرأ العربية على مُحمَّد بن زَكَرِيَّا، وعبد اللطيف الشرجيّ، وغيرهما. وقرأ في عدة فنون، وبرز في جميعها، وفاق أهل عصره، وطال صيته، واشتهر ذكره، ومهر في صناعة النظم والنثر، وجاء بما لا يقدر عليه غيره. وأقبل عليه ملوك اليمن، وصار له حظٌّ عظيم عند الخاص والعام. وولَّاه الملك الأشرف تدريس المجاهدية بتَعز، والنظامية بزبيد، فأفاد الطلبة. وعُيِّن للسفارة إلى الديار المصرية، ثم تأخر ذلك لطمعه في الاستقرار في قضاء الأقضية بعد المجد الشيرازي صاحب القاموس الآتي ذكره إن شاء اللَّه تعالى، فلم يتمّ له مُناه، بل كان يرجوه في حياة المجد، ويتحامل عليه بحيث أن المجد عمل للسلطان كتاباً، وجعل أول كل سطرٍ منه الألف. فاستعظمه السلطان، فعمل له صاحب الترجمة كتابه الذي لم يسبق إليه المعروف (بعنوان الشرف) والتزم أن يخرج من أواخره ووسطه علوماً غير العلم الذي يخرج من جميعه وهو الفقه، ولم يتم في حياة الأشرف، فقدَّمه لولده الناصر، ووقع عنده، بل وعند سائر علماء عصره ببلده وغيرها موقعاً عظيماً. ومن تأمله رأى فيه ما يعجز عنه غالب الطباع البشرية، فإنه إذا قرأه القارئ جميعاً وجده فقهاً، وإذا قرأ أوائل السطور فقط وأوساطها فقط وأواخرها فقط استخرج من ذلك علم النحو والتاريخ والعروض والقوافي. ومن مصنفاته (الروض) مختصر الروضة، فكان الاسم مختصراً من اسم الأصل و(الإرشاد) وهو كتاب نفيس في فروع الشافعية رشيق العبارة حلو الكلام في غاية الإيجاز مع كثرة المعاني. وشرحه في مجلدين، وقد طار في الآفاق، واشتغل به علماء الشافعية في الأقطار، وشرحه جماعة منهم، وله «بديعية» بديعة، وله تصانيف غير هذه. وارتقى في جميع المعارف إلى رتبة لم يشتمل على مجموعها غيره، بل قيل إن اليمن لم ينجب مثله. وشعره في الذروة العالية حتى قال بعض معاصريه: إنه أشعر من المتنبي. ولعلَّه بالنسبة إلى ما يأتي به في شعره من الأنواع الغريبة، والأساليب العجيبة، كالقصيدة التي تُقرأ حروف رويها بالضم والنصب والجر. ومن شعره ما يخرج من البيت الواحد وجوه تزيد على الألف. وكان مع إجادته في الشعر يكره أن ينتسب إليه حتى قال: [من الوافر]

---

(١) ترجمته في: الضوء اللامع: ٣/ ٢٩٢؛ بغية الوعاة: ١٩٣؛ شذرات الذهب: ٧/ ٢٢٠؛ كشف الظنون: ٦٩، ٢٣٤، ١٣٣٦؛ إيضاح المكنون: ١/ ٤٩، ٢/ ١٨٩؛ معجم المؤلفين: ٢/ ٢٦٢؛ الأعلام: ١/ ٣١١.

بِـعَـيْـنِ الـشّـعـرِ أبـصـرنـي أنـاسٌ فـلـمَّـا سَـاءنـي أخـرجـتُ عَـيْـنَـهْ
خُـروجـاً بـعـدَ راءٍ كـان رأيـي فَـصـار الـشعـرُ منّي الـشَّـرْعَ عَـيْـنَـهْ

قال ابن حَجَر في أنبائه: أنه اجتمع به في سنة (٨٠٠) ثم في سنة (٨٠٦)، قال: وفي كل مرَّة يحصل لي منه الودّ الزائد والإقبال. وتنقلت به الأحوال، وولي بعض البلاد في دولة الأشرف، وناله من الناصر جائحة تارة، وإقبال أخرى، وكان يتشوّق لولاية القضاء بتلك البلاد فلم يتفق له. قال: ومن نظمه بديعية التزم في كل بيت منها تورية مع التورية باسم النوع البديعي، وله مسائل وفضائل. وعمل مرَّة ما يتفرع من الخلاف في مسألة الماء المشمس، فبلغت آلافاً. قال: وله خصوصية بالسلطان. وَوُلي عدة ولايات دون قدره. وله تصانيف، وحذق تام، ونظر مليح، ما رأيت باليمن أذكى منه. انتهى. والحاصل أنه إمامٌ في الفقه والعربية والمنطق والأصول وذو يد طولى في الأدب نظماً ونثراً، ومتفرد بالذكاء وقوة الفهم وجودة الفكر، وله في هذا الشأن عجائب وغرائب لا يقدر عليها غيره. ولم يبلغ رتبته في الذكاء واستخراج الدقائق أحد من أبناء عصره، بل ولا من غيرهم. سمع بعض الناس يذكر بيتي الحريري[(١)] في المقامات اللذين قال إنه قد أمن أن يُعزّزا بثالث وهما: [من السريع]

سِـمْ سِـمَـةً تـحـمـدُ آثـارهـا فَـاشْـكُـر لِـمَـنْ أعطى وَلَـوْ سِـمْـسِـمَـهْ
والـمَـكْـر مَـهْـمَـا اسْـطَـعْـتَ لا تـأْتِـه لِـتَـقْـتَـفـي الـسُّـؤْدُدَ والـمَـكْـرُمَـهْ

فقال: إن تعزيزهما بثالث غير ممتنع، فجحد ذلك البعض، وطال بينهما النزاع، فرجع إلى بيته، وعمل على هذا النمط توفية خمسين بيتاً، وأرسل بها إلى من جادله، وقال: قد صارا خمسين. وأول أبياته: [من السريع]

مِـنْ كـلّ مـهـدي وَدَعَـا أحـمـدا أجـيـبُ مـا أسـعـد مِـنْ كَـلَّـمَـهْ

وقد كان بعض المتأخرين ممن عاصره قبل عصر صاحب الترجمة قد عزّز بيتي الحريري بثالث وهو: [من السريع]

والـمسْ لِمَهْوى الضّيفِ خَيْر القِرَى وَسـلـم الـمُـسـلـم والـمُـسْـلِـمَـهْ

ومع كونه بهذه المنزلة من الذكاء كان غاية في النسيان حتى قيل إنه لا يذكر ما كان في أول يومه. ومن أعجب ما يحكى في نسيانه أنه نسي مرة ألف دينار ثم وقع عليها بعد مدة اتفاقاً فتذكر ذلك مع عدم توسعه في الدنيا بل مع مزيد حاجته إلى ما هو أقل من ذلك. وكان ينكر نحلة ابن عربي وأتباعه، وبينه وبين متبعيه معارك. وله

(١) هو أبو محمد، القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري: أديب كبير، له مؤلفات كثيرة، أشهرها «المقامات»، توفي سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م. (الأعلام: ٥/ ١٧٧).

في ذلك رسالتان وقصائد كثيرة. (مات) في سنة ٨٣٧ سبعٍ وثلاثين وثمانمائة. وترجمته تحتمل كراريس.

٩٠

(السيد إسْماعيل بن الحَسَن بن أحمد بن الحَسَن)

ابن الإمام القاسِم بن مُحمَّد شيخنا العلَّامة المدرِّس. ولد تقريباً بعد سنة ١١٢٠ عشرين ومائة وألف. ونشأ بصنعاء وأخذ عن أكابر علمائها، ثم انتفع به الطلبة في العربية، واشتهر على الألسن أنه من افتتح طلبه عليه في علم العربية استفاد. وكنت من جملة من افتتح عليه في العربية، فقرأت عليه «ملحة الإعراب» للحريري، وشرحها المعروف بشرح بحرق، وكان له بي عناية كاملة، وله مشاركة قوية في علم الصرف والمعاني والبيان والأصول. ومن بركته المُجرَّبة أني تصدّرت للتدريس في الملحة وشرحها قبل الفراغ من قراءتها عليه، وكان رحمه اللَّه يواظب على التدريس مع ضعفه وعلوّ سِنِّه، وكنتُ أراه يأتي الجامع المقدس في أيام الشتاء وشدة البرد فيقعد للتدريس، وقد أثر فيه البرد مع الحركة تأثيراً قويّاً. واستمرّ رحمه اللَّه على ذلك حتى (توفاه) اللَّه تعالى في يوم الجمعة لست عشرة ليلة خلت من شهر صفر سنة ١٢٠٦ ستٍّ ومائتين وألف.

٩١

(السيد إسْماعيل بن الحَسَن الشامي)

مولده سنة ١١٥٤ أربعٍ وخمسين ومائة وألف. وله شغلة بالزهد والورع والاشتغال بخاصة نفسه. واتصل بالسيد عليّ بن مُحمَّد بن عامر أيام توليته للأوقاف، فكان ينوب عنه في كثير من الأعمال. ثم استقر بعد مدة في وقف مدينة ثلا، ثم استقرّ بعد ذلك في ولاية وقف صنعاء، وهو الآن مستمرٌّ على ذلك. وبيني وبينه مودّة صادقة ومحبة خالصة، ولنا اجتماعات نفيسة، وهو كثير التواضع، حسن الأخلاق، عالي الهمة، كثير المروءة، كثير البر والإحسان، لا برح في حماية الملك الديّان. وله يد في المعارف العلمية، وعمل بما يقتضيه الدليل، وإنصاف في جميع مسائل الخلاف. و(توفي) رحمه اللَّه في شهر شعبان سنة ١٢٣٤ أربعٍ وثلاثين ومائتين وألف.